كيف نحبّ الله؟

(١)

الشيخ محمد مهدي الآصفي

العلاقة بالله

العلاقة بالله تعالى في صورتها الصحيحة تتكون من مجموعة من العناصر المتناسقة والمتآلفة. وهذه العناصر مجتمعة تكوّن الأسلوب الصحيح للعلاقة بالله تعالى.

والنصوص الإسلامية ترفض العلاقة بالله تعالى على أساس العنصر الواحد، كالخوف أو الرجاء، أو الحب أو الخشوع، وتعتبر العلاقة بالله التي تعتمد العنصر الواحد فاقدة لحالة التوازن والتناسق. والعناصر التي تشكّل العلاقة بالله تعالى مجموعة واسعة، ورد ذكرها بتفصيل في نصوص الآيات والروايات والأدعية مثل الرجاء، والخوف، والتضرع، والخشوع، والتذلل، والوجل، والحب، والشوق، والأنس، والإنابة، والتبتل، والاستغفار، والرهبة، والطاعة، والعبودية، والذكر، والفقر، والاعتصام. وقد ورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه‌السلام: «*اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حبّاً لك وخشية منك، وتصديقاً لك وإيماناً بك، وفرقاً منك، وشوقاً إليك*»[١].

ومن هذه العناصر المتعددة يتألف طيفٌ زاهٍ ومتناسق للعلاقة بالله تعالى، وكل عنصر من هذه العناصر يعدّ باباً من أبواب رحمة الله ومعرفته، فالاسترحام مفتاح لرحمة الله تعالى، والاستغفار مفتاح للمغفرة.

كما أن كل عنصر من هذه العناصر يعتبر بحد ذاته طريقاً للحركة والسلوك إلى الله. فالشوق والحب والأنس بالله طريق إلى الله، والخوف والرهبة طريق آخر إلى الله تعالى، والخشوع طريق ثالث إلى الله، والرجاء والدعاء والتمني طريق رابع إلى الله.

وعلى الإنسان أن يسلك ويتحرك إلى الله تعالى من مسالك وطرق مختلفة، ولا يقتصر على سلوك الطريق الواحد، فإن لكل سلوك نكهة وذوقاً وكمالاً وثمرة في حركة الإنسان إلى الله لا توجد في السلوك الآخر.

وعلى هذا الأساس يطرح الإسلام مبدأ تعددية عناصر العلاقة بالله تعالى.

وهذا بحث واسع من العلم لا نريد أن ندخله الآن.

■ العلاقة بالله تعالى في صورتها الصحيحة تتكون من مجموعة من العناصر المتناسقة والمتآلفة. وهذه العناصر مجتمعة تكوّن الأسلوب الصحيح للعلاقة بالله تعالى.

■ النصوص الإسلامية ترفض العلاقة بالله تعالى على أساس العنصر الواحد، كالخوف أو الرجاء، أو الحبّ أو الخشوع، وتعتبر العلاقة بالله التي تعتمد العنصر الواحد فاقدة لحالة التوازن والتناسق.

حبّ الله تعالى

وحب الله تعالى من أفضل هذه العناصر وأقواها وأبلغها في شد الإنسان بالله تعالى، وتقوية علاقته به عزّ شأنه. ولا يوجد في ألوان العلاقة بالله لون أقوى وأبلغ من الحب في توثيق علاقة العبد بالله.

وقد ورد ذكر هذه المقارنة بين عناصر العلاقة بالله تعالى في مجموعة من النصوص الإسلامية نذكر بعضها:

روي أن الله تعالى أوحى إلى داود: «*يا داود ذكري للذاكرين، وجنّتي للمطيعين، وحبّي للمشتاقين، وأنا خاصّة للمحبّين*»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «*الحبّ أفضل من الخوف*»(٣).

وروى محمد بن يعقوب الكلبني في *أصول الكافي* عن الإمام أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام: «*العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجل خوفاً، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة التجار. وقوم عبدوا الله عزّ وجل حبّاً، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل عبادة*»(٤).

وأيضاً في *أصول الكافي* عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«*أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم يسر*»(٥).

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والحب. فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحبّ فرع المعرفة. فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه. فإذا تحقق العلم في الصدر خاف، وإذا صحّ الخوف هرب، وإذا هرب نجا، وإذا أشرق نور اليقين في القلب شاهد الفضل، وإذا تمكن من رؤية الفضل رجا، وإذا وجد حلاوة الرجاء طلب، وإذا وُفِّق للطلب وجد. وإذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة، وإذا هاج ريح المحبة استأنس ظلال المحبوب، وآثر المحبوب على ما سواه، وباشر أوامره. ومثال هذه الأصول الثلاثة كالحرم والمسجد والكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في المعصية، ومن دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغله بغير ذكر الله»[٦].

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله عزّ وجل حتى عمي... أوحى الله إليه: يا شعيب إن يكن هذا خوفاً من النار، فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبّك على قلبي، فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران»[٧].

■ العناصر التي تشكّل العلاقة بالله تعالى مجموعة واسعة، ورد ذكرها بتفصيل في نصوص الآيات والروايات والأدعية مثل: الرجاء، والخوف، والتضرّع، والخشوع، والتذلل، والوجل، والحبّ، والشوق، والأنس، والإنابة، والتبتل، والاستغفار، والرهبة، والطاعة، والعبودية، والذكر، والفقر، والاعتصام.

■ ورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين:

«اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حبّاً لك وخشية منك، وتصديقاً لك وإيماناً بك، وفرقاً منك، وشوقاً إليك».

وفي صحيفة إدريس عليه السلام:

«طوبى لقوم عبدوني حبّاً، واتخذوني إلهاً وربّاً، وسهروا الليل، ودأبوا النهار طلباً لوجهي من غير رهبة ولا رغبة، ولا لنار، ولا لجنة، بل للمحبة الصحيحة، والإرادة الصريحة والانقطاع عن الكلّ إليّ»[٨].

«عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً»[٩].

الإيمان والحبّ

وقد روي في النصوص الإسلامية أن الإيمان حبّ.

عن الإمام الباقر عليه السلام: *«الإيمان حب وبغض»*[١٠].

وعن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام: عن الحبّ والبغض، أمن الإيمان هو؟ فقال عليه السلام: *وهل الإيمان إلّا الحب والبغض*[١١]؟

وعن الصادق عليه السلام: *«هل الدين إلّا الحب؟! إن الله عز وجل يقول: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾»*[١٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: *«الدين هو الحبّ، والحبّ هو الدين»*[١٣].

لذة الحب

والعبادة إن كانت عن حبّ وشوق ولهفة فلا تفوقها لذة وحلاوة.

ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام، وهو ممن ذاق حلاوة حب الله وذكره: *«إلهي ما أطيب طعم حبّك وما أعذب شرب قربك»*[١٤].

وهي حلاوة ولذة مستقرة في قلوب أولياء الله، وليست لذة عارضة تعرض حيناً، وترتفع حيناً. وإذا استقرت لذة حب الله في قلب العبد، فذلك قلب عامر بحب الله. ولن يعذّب الله قلب عبد عمر بحبّه، واستقرت فيه لذة حبّه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: *«إلهي وعزتك وجلالك لقد أحببتك محبّة استقرّت حلاوتها في قلبي، وما تنعقد ضمائر موحّديك على أنك تبغض محبيك»*[١٥].

وعن هذه الحالة المستقرة والثابتة من الحبّ الإلهي يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: *«فوعزتك يا سيدي لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملّقك، لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك»*[١٦].

وهو من أبلغ التعبير في عمق الرجاء والحب واستقرارهما في القلب، فلا يزولان ولا يتغيران في قلب العبد حتى لو نهره مولاه وأبعده من جنابه، وحاشاه أن يفعل ذلك بعبدٍ استقرّ حبّه ورجاؤه في قلبه.

وإذا عرف الإنسان طعم حبّ الله ولذة الأنس به، فلا يؤثر عليه شيئاً.

يقول زين العابدين وإمام المحبّين عليه السلام: *«ومن ذا الذي ذاق حلاوة محبّتك فرام عنك بدلاً،*

ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً»(١٧).

إنّما يتوزع الناس على المسالك والمذاهب لأنهم حرموا عن لذة حب الله. أمّا الذين عرفوا لذة حبّ الله فلا يبحثون بعد حبّ الله عن شيء آخر في حياتهم.

يقول الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «*ماذا وجد من فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك*»؟!(١٨).

ويستغفر الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام من كل لذة غير لذة حبّ الله، ومن كل شغل غير الاشتغال بذكر الله، ومن كل سرور بغير قرب الله، لا لأن الله تعالى حرّم على عباده ذلك، ولكن لأن ذلك من انصراف القلب عن الله واشتغاله بغير الله ولو لزمن قصير، ولا ينصرف عن الله قلب عرف لذة حب الله.

وكل شيء وكل جهد في حياة أولياء الله يأتي في امتداد حب الله، وذكر الله، وطاعة الله، وكل شيء عدا ذلك فهو انصراف عن الله، يستغفرون الله منه.

يقول عليه السلام: «*أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك*»(١٩).

الحبّ يجبر عجز العمل

والحب لا ينفصل عن العمل، فمن أحبّ كانت أمارة حبّه العمل والحركة والجهد.

▣ روي أن الله تعالى أوحى إلى داود: «يا داود ذكري للذاكرين، وجنّتي للمطيعين، وحبّي للمشتاقين، وأنا خاصّة للمحبّين».

▣ عن الإمام الصادق عليه السلام: «العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجل خوفاً، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة التجار. وقوم عبدوا الله عزّ وجل حبّاً، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل عبادة».

▣ بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله عزّ وجل حتى عمي ... أوحى الله إليه: يا شعيب إن يكن هذا خوفاً من النار، فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك ... فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبّك على قلبي، فلست أصبر أو أراك.

ولكن الحب يجبر عجز العمل، ويشفع لصاحبه كلما قصر عمله، وهو شفيع مشفّع عند الله تعالى.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار الذي يرويه عنه أبو حمزة، وهو من جلائل الأدعية: «*معرفتي يامولاي دليلي عليك، وحبّي لك شفيعي إليك، وأنا واثق من دليلي بدلالتك وساكن من شفيعي إلى شفاعتك*»(٢٠)

ونعم الدليل والشفيع المعرفة والحب، فلا يضيع عبد دليله إلى الله المعرفة، ولا يقصر عبد عن الوصول والبلوغ إذا كان شفيعه إلى الله الحب.

يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

«إلهي إنك تعلم أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً، فقد دامت محبةً وعزماً»

وهو إشارة رقيقة من رقائق كلمات الإمام. فإن الطاعة قد تقصر بالإنسان، ولا يتمكن أن يثق بطاعته لله، ولكن ما لا سبيل إلى الشك فيه للمحبين هو اليقين والجزم بحبهم لله تعالى، وعزمهم على المضي في الحب والطاعة. وهذا مما لا يرتاب فيه عبد وجد حب الله في قلبه. فقد يقصر العبد في طاعة، وقد يرتكب ما يكرهه الله ولا يحبه من معصية، ولكن ما لا يمكن أن يكون وهو يقصر في الطاعة ويرتكب المعصية، أن يكره الطاعة ويحب المعصية. فإن الجوارح قد

تنزلق في المعاصي، ويستدرجها الشيطان والهوى إليها، وقد تقصر الجوارح في طاعة الله، ولكن قلوب الصالحين من عباد الله لا يدخلها غير حب الله وحب طاعته وكراهية معصيته.. وفي الدعاء: «*إلهي أُحبّ طاعتك وإن قصرت عنها، وأكره معصيتك وإن ركبتها، فتفضل عليّ بالجنة*»(٢١).

وهذه هي الفاصلة بين الجوارح والجوانح، فإن الجوارح قد تقصر عن اللحوق بالجوانح، وقد تخلص الجوانح لسلطان حب الله بشكل كامل، وتقصر عنها الجوارح، إلّا أن القلب إذا خلص وطاب فلابد أن تنقاد له الجوارح وتطيعه، ولابد أن تنفذ ما تطلبه وتريده الجوانح، وتردم عند ذلك الهوة بين الجوارح والجوانح بسبب إخلاص القلب.

الحب يجير الإنسان من العذاب

وإذا كانت الذنوب تُسقط الإنسان في عين الله، وتعرّضه لعقاب الله وعذابه، فإن الحب يجير الإنسان من عذاب الله وعقابه.

ففي المناجاة عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «*إلهي إن ذنوبي قد أخافتني، ومحبتي لك قد أجارتني*»(٢٢).

درجات الحب وأطواره

وللحب في قلوب العباد درجات ومراحل، فمن الحب حب ضحل ضئيل لا يكاد يحسّ به صاحبه، ومن الحب ما يملأ قلب العبد، ولا يترك في قلبه فراغاً لشأن آخر مما يلهو به الناس ويشغلهم. ومن الحب ما لا يرتوي معه العبد من ذكر الله ومناجاته والوقوف بين يديه، ولا يبرد ظمأ فؤاده من الذكر، والدعاء، والصلاة، والعمل في سبيل الله، مهما طال وقوفه، وعمله، وصلاته بين يدي الله.

وفي الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «*سيدي أنا من حبّك جائع لا أشبع، أنا من حبّك ظمآن لا أروى، واشوقاه إلى من يراني ولا أراه*»

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في المناجاة: «*وغلّتي لا يبرّدها إلّا وصلك، ولوعتي لا يطفئها إلّا لقاؤك، وشوقي إليك لا يبله إلّا النظر إليك*»(٢٣).

ومن حب الله (الوله، والهيام). ففي زيارة أمين الله: «*اللهم إن قلوب المخبتين إليك والهة*»(٢٤).

وفي دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «*إلهي بك هامت القلوب الوالهة... فلا تطمئن القلوب إلّا بذكراك، ولا تسكن النفوس إلّا عند رؤياك*»(٢٥).

وهذه خاصة القلوب الوالهة والهائمة لا تسكن ولا تطمئن إلّا بذكر الله. ومن أروع الحب وأبلغه ما نجده في كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الدعاء الذي علمه لكميل بن زياد النخعي رحمه الله والمعروف بدعاء كميل:

▣ للحبّ في قلوب العباد درجات ومراحل، فمن الحبّ حبّ ضحل ضئيل لا يكاد يحسّ به صاحبه، ومن الحب ما يملأ قلب العبد، ولا يترك في قلبه فراغاً لشأن آخر مما يلهو به الناس ويشغلهم.

▣ من الحبّ ما لا يرتوي معه العبد من ذكر الله ومناجاته والوقوف بين يديه، ولا يبرد ظمأ فؤاده من الذكر، والدعاء، والصلاة، والعمل في سبيل الله، مهما طال وقوفه، وعمله، وصلاته بين يدي الله.

▣ عن الإمام الصادق عليه السلام: «سيدي أنا من حبّك جائع لا أشبع، أنا من حبّك ظمآن لا أروى، واشوقاه إلى من يراني ولا أراه».

«فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟! وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟! أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك؟!»(٢٦)

فهب أن العبد يصبر على نار مولاه، فكيف يصبر على هجره وفراقه وغضبه؟! والمحب قد يتحمل عقوبة مولاه، ولكن لا يتحمل غضبه ومقته له. وقد يتحمل النار، وهي من أقسى العقوبات، ولكن لا يتحمل هجر مولاه وفراقه.

وكيف ترى يسكن العبد في نار جهنم وهو يرجو أن يعطف عليه مولاه وينقذه منها؟!

وهذا *الحب* و *الرجاء* الذي لا يفارق قلب العبد؟ ـ وهو يصلى في نار جهنم بغضب من الله تعالى ـ من أروع صور هذا الدعاء الجليل؛ فقد يحب العبد مولاه، وهو ينعم بنعمته وفضله، وهو بالتأكيد من الحب ولكن الحب؛ الذي لا يزيد عليه حب أن لا يفارق الحب والرجاء قلب العبد وهو يصلى بنار عذاب مولاه.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار الذي علمه لأبي حمزة الثمالي رحمه الله:

«فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملّقك. إلى من يذهب العبد إلّا إلى مولاه؟! وإلى من يلتجئ المخلوق إلّا إلى

خالقه؟! إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحلت بيني وبين الأبرار ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبّك من قلبي»[٢٧].

وهذا هو أصدق الحب والرجاء والأمل، وأنقاه وأصفاه، ولا يكاد يخرج من قلب العبد حتى لو قرنه مولاه بالأصفاد، ومنعه سيبه من بين الأشهاد، ودلّ على فضائحه عيون العباد.

ولنتابع استعراض هذه الصور الرائعة من الحب والرجاء التي يرسمها الإمام علي عليه السلام في هذا الدعاء الجليل دعاء كميل:

فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً، لئن تركتني ناطقاً، لأضجّن إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينّك أين كنت يا وليّ المؤمنين؟ ياغاية آمال العارفين. أفتراك سبحانك وبحمدك تسمع فيها صوت عبدٍ مسلم سُجن فيها بمخالفته وذاق طعم عذابها بمعصيته، وحُبس بين أطباقها بجرمه وجريرته، وهو يضجّ إليك ضجيج مؤمل لرحمتك، وينادي بلسان أهل توحيدك، ويتوسّل إليك بربوبيتك. يا مولاي فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك؟! أم كيف تؤلمه النار، وهو يأمل فضلك ورحمتك؟! أم كيف يحرقه لهيبها، وأنت تسمع صوته، وترى مكانه؟! أم كيف يشتمل عليه زفيرها، وأنت تعلم ضعفه؟! أم كيف يتقلقل بين أطباقها، وأنت تعلم صدقه؟! أم كيف تزجره زبانيتها، وهو يناديك ياربه؟! أم كيف يرجو فضلك في عتقه منها فتتركه فيها؟! هيهات ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك، ولا مشبه لما عاملت به الموحّدين من برّك وإحسانك.

فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحد فيها مقرّاً ولا مقاماً[٢٨].

كان أحدهم يقول:

إن خصلة البطولة والشجاعة خصلة أصيلة في الإمام علي عليه السلام، لا تفارقه حتى في الدعاء بين يدي رب العالمين.

فها هو في الدعاء الذي علمه لكميل يتصور أن النار قد احتوت العبد المذنب، وأحاطت به من كل جانب، فلا يسكت ولا يسكن، ولا يستسلم للعذاب والعقوبة، كما هو مقتضى الحال فيمن أطبق عليه العذاب واحتوته زبانية النار، وإنما يضج ويبكي ويصرخ ويهتف وينادي.

ألا تراه كيف يعبر عن هذه الحالة في دعائه: «*فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكين عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينّك أين*

كنت يا وليّ المؤمنين».

قلت: لم تصب في تذوّق كلام الإمام علي عليه السلام. ولو كان الإمام عليه السلام بهذا الصدد لم يقل في مقدمة هذا الخطاب: «لو تركتني ناطقاً».

أما أنا فأتصوّر أن الحالة النفسية للإمام علي عليه السلام في هذه الكلمات التي يقولها بين يدي الله تعالى، حالة الطفل الصغير الذي لم يعرف في دنياه غير عطف أمه ورحمتها وحبّها ملجأً وملاذاً. فكلما داهمه أمر أو أضرّ به شيء لجأ إلى أمه، واستغاث بها واستنجدها، فإذا ارتكب مخالفة وتعرض لعقوبة من أمه، وأراد أن يلجأ إلى طرف يحميه من عقوبة أمه، لم يجد ملاذاً وملجأً غيرها، فيحتمي بها ويستنجدها ويستغيث بها ويلوذ بها، كما كان يفعل عندما يصيبه الأذى من غيرها.

وهذا هو حال الإمام علي عليه السلام في هذا الدعاء، إنه تعلم بقلبه الكبير، وأفقه الواسع الرحب أن يلجأ إلى الله، ويستغيث به ولا يعرف غيره ملجأً ولا ملاذاً.

فهو سبحانه وتعالى، ملجأُه وملاذه الوحيد الذي لا يعرف غيره. فإذا تصور أن الله تعالى قد أحاطه بعذابه وعقوبته[٢٩] فلا يتردد لحظة واحدة أن يلجأ إلى الله، ويلوذ به، ويستنجد به، ويستغيث به كما كان يفعل كل مرة.

أو ليس هو سبحانه ملاذه وملجأه الوحيد؟! فلماذا يتردد هذه المرة أن يستنجد ويستغيث به؟!

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في تصوير هذا المعنى في المناجاة: *«فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ؟! وإن رددتني عن جنابك فمن أعوذ؟! إلهي هل يرجع العبد الآبق إلّا إلى مولاه؟! أم هل يجيره من سخطه أحد سواه؟!»*[٣٠].

ويقول عليه السلام في الدعاء الذي علمه لأبي حمزة الثمالي: *«وأنا يا سيدي عائذ بفضلك هارب منك إليك»*[٣١].

ويقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام في الدعاء نفسه: *«إلى من يذهب العبد إلّا إلى مولاه؟! وإلى من يذهب المخلوق إلّا إلى خالقه؟!»*[٣٢].

والهروب من الله إلى الله من دقائق المعاني والأفكار في علاقة العبد بالله. وهذه المشاعر التي يصوّرها الإمام علي عليه السلام في علاقة العبد بالله هي من أرقّ مشاعر *الحب والرجاء* وأصدقها في نفوس المحبين.

والإمام علي عليه السلام لا يذهب مذهب الشعراء في هذه الفقرة من الدعاء في الاستعانة بالخيال في إكمال رسم هذه اللوحة الرائعة من الدعاء، وإنما هو صادق كل الصدق في التعبير عن إحساسه وشعوره هذا بين يدي الله.

ولذلك فهو يعقب هذه اللوحة من *استغاثة*

العبد بربه بلوحة أخرى في نجدة الله لعبده. فليس يمكن فيما نعرف من رحمة الله وفضله أن الله تعالى يخيّب هذا الإحساس الصادق والصافي والنقي من العبد في الحب والرجاء، فيردّ حبّه ويخيّب رجاءه، يقول عليه السلام: *«فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك؟! أم كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضلك ورحمتك؟! أم كيف يحرقه لهيبها وأنت تسمع صوته وترى مكانه؟! أم كيف يشتمل عليه زفيرها وأنت تعلم ضعفه؟! أم كيف يتقلقل بين أطباقها وأنت تعلم صدقه؟! أم كيف تزجره زبانيتها وهو يناديك ياربه؟!»*

فهل يمكن أن تقوده الزبانية إلى النار وتزجره فيها، وهو ينادي الله، ويهتف به، ويلوذ به بلسانَ أهل توحيده؟!

إن ما سبق من حلمه وفضله في حياتنا ينفي ذلك نفياً قاطعاً مطلقاً.

والإمام عليه السلام يستدل بحلم الله على حلمه وبفضله على فضله *«وهو يرجو ما سلف من حلمك»*.

والإمام عليه السلام قاطع في هذا الجانب من القضية (الخط النازل) في علاقة الله بالعبد، كما كان قاطعاً وصريحاً في الطرف الآخر من القضية (الخط الصاعد) في علاقة العبد بالله. فكما كان قاطعاً وصريحاً أنه حتى في النار لايفارقه حبه ورجاؤه ولن يبدل بالله تعالى ملجأً وملاذاً، كذلك هو قاطع وصريح أن الله تعالى لا يخيب مثل هذا الحب الصادق والرجاء الصادق في قلب العبد.

تأملوا في هذا الجزم والقطع والصراحة في كلام الإمام علي عليه السلام: *«هيهات ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك، ولا مشبه لما عاملت به الموحّدين من برّك وإحسانك. فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحد فيها مقرّاً ولا مقاماً»*[٣٣].

وهذا الجزم والقطع في علاقة العبد الذي أحب مولاه وعلاقة المولى بعبده، تجده في مواضع أخرى من كلمات الإمام علي عليه السلام.

فها هو يخاطب الله تعالى في مناجاته المشهورة: *«إلهي وعزتك وجلالك لقد أحببتك محبة استقرّت حلاوتها في قلبي، وما تنعقد ضمائر موحديك على أنك تبغض محبّيك»*[٣٤].

وفي مناجاة الإمام علي بن الحسين عليه السلام: *«إلهي نفس أعززتها بتوحيدك كيف تذلّها بمهانة هجرانك؟! وضمير انعقد على مودّتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك؟!»*[٣٥].

ويقول عليه السلام أيضاً في دعاء الأسحار من شهر رمضان الذي علّمه أبا حمزة الثمالي رحمه الله: *«أفتراك ياربِّ تخلف ظنوننا؟! أو تخيّب آمالنا؟! كلّا ياكريم، فليس هذا ظنّنا بك، ولا هذا طمعنا فيك، يارب إن لنا فيك أملاً طويلاً كثيراً، إن لنا فيك رجاءً عظيماً...»*[٣٦].

حالتا الشوق والأنس في الحب

للحب ظهوران:

فقد يبرز على صورة (الشوق)، وقد يبرز على صورة (الأنس).

وكلتاهما حالتان تعبران عن الحب، إلّا أن حالة (الشوق) تنتاب المحب عندما يكون بعيداً عمن يحبه، وحالة (الأنس) تنتاب المحب عندما يكون بحضور حبيبه.

وهاتان الحالتان متواردتان على قلب العبد تجاه الله تعالى. فإن لله تعالى تجليين، يتجلى للعبد عن بعد تارة وعن قرب أخرى *«الذي بُعد فلا يُرى وقرب فشهد النجوى»*.

وعندما يتجلى للعبد عن بعد تنتاب العبد حالة *الشوق*، وعندما يتجلى للعبد عن قرب، ويحس العبد بحضور مولاه ﴿*وهو معكم أينما كنتم*﴾[٣٧]، ﴿*ونحن أقرب إليه من حبل الوريد*﴾[٣٨] ﴿*وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ*﴾[٣٩] تنتاب العبد حالة *الأنس*.

وفي دعاء *الافتتاح* للإمام الحجة المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف تصوير دقيق لهاتين الحالتين: *«الحمد لله الذي لا يُهتك حجابه ولا يُغلق بابه»*[٤٠]

ولاشك أن الذي لا يهتك حجابه هو الذي لا يغلق بابه... ولكن شتان بين ذكر الله تعالى من خلال هذا التصور أو ذاك.

والحجاب حجابان: حجاب ظلمة وحجاب نور، فقد تمنع الإنسان من الرؤية كثافة الحجب الظلمانية، وهذا حجاب الظلمة.

وقد تمنع الإنسان من الرؤية شدة وهج النور، كما يعجز الإنسان عن رؤية الشمس ليس لحاجز أو مانع، وإنما لشدة وهج الشمس، وهذا هو حجاب النور.

وحجاب الظلمة في علاقة الإنسان بالله تعالى هو حب *الدنيا ومقارفة السيئات وما يرين على القلب* من السيئات.

وحجاب النور في علاقة الإنسان بالله تعالى شيء غير ذلك، وهو الحجاب الذي لا يهتك، كما يقول الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه في هذا الدعاء.

وهذا الحجاب هو الذي يهيج الشوق واللهفة في قلوب العباد.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن هذه الحالة من الشوق واللهفة إلى الله في مناجاته:

«وغلتي لا يبرّدها إلّا وصلك، ولوعتي لا يطفيها إلّا لقاؤك، وشوقي إليك لا يبله إلّا النظر إلى وجهك، وقراري لا يقرّ دون دنوّي منك، ولهفتي لا يردّها إلّا روحك، وسقمي لا يشفيه إلّا طبّك، وغمّي لا يزيله إلّا قربك، وجرحي لا يبرئه إلّا صفحك، ورَين قلبي لا يجلوه إلّا عفوك... فيا منتهى أمل الآملين ويا سؤل السائلين، ويا أقصى طلبة الطالبين، ويا أعلى رغبة الراغبين، ويا وليّ الصالحين، ويا أمان الخائفين، ويا مجيب دعوة

المضطرين، ويا ذخر المعدمين، ويا كنز البائسين»[٤١].

وفي مقابل هذا التجلي نحو آخر من التجلي: تجلي الله لعباده دون أن يغلق له باب بينه وبين عباده، يسمع نجواهم، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يحول بين المرء وقلبه، ولا يخفى عليه شيء مما يخطر على قلوب عباده، فيشعر العبد أنه بحضور مولاه، يتهيب أن يخالفه ويعصيه ويأنس بذكره، ويسكن إلى مناجاته ودعائه، ويطيل المناجاة والذكر والدعاء والوقوف بين يديه.

وفي الحديث القدسي، يقول الله لنبيه موسى بن عمران *عليه السلام* وهو يصف قيامهم له في ظلمات الليل، وقد هدأ الناس فاستسلموا للنوم:

«ولو تراهم وهم يقومون لي في الدجى، وقد مثلت نفسي بين أعينهم يخاطبونني، وقد جللت عن المشاهدة، ويكلمونني، وقد عززت عن الحضور»[٤٢].

فلا يملّ العبد الوقوف بين يدي الله ولا يشعر بمرور الوقت، هل رأيت إن كان الإنسان بمحضر حبيب من الأحباء الذين تهوى إليهم نفوس الناس، هل يملّ أو يشعر بمرور الوقت؟ فكيف لو كان الإنسان يشعر أنه بحضور الله، يسمعه، ويراه، ويسمع خطابه وكلامه، وهو معه، ﴿***وهو معكم أينما كنتم***﴾[٤٣].

▣ للحبّ ظهوران: فقد يبرز على صورة (الشوق)، وقد يبرز على صورة (الأنس).

▣ كلتا الحالتين تعبّران عن الحبّ، إلّا أن حالة (الشوق) تنتاب المحب عندما يكون بعيداً عمن يحبّه، وحالة (الأنس) تنتاب المحب عندما يكون بحضور حبيبه.

▣ هاتان الحالتان متواردتان على قلب العبد تجاه الله تعالى. فإن لله تعالى تجليين، يتجلّى للعبد عن بعد تارة وعن قرب أخرى

فيسكن ويطمئن إلى ذكر الله ﴿*ألا بذكر الله تطمئن القلوب*﴾[٤٤].

يقول الإمام المهدي الحجة عليه السلام في دعائه المعروف بـ(الافتتاح): «*فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك*»[٤٥].

ولاشك أن هذه الحالة من الأنس بالله، والسكون إليه، والإحساس بالأمن في كنف الله حالة نابعة من الإحساس بحضور الله وقربه وعينه، وهي من أفضل حالات العبد تجاه الله، ولكنها ليست تمثل كل شيء في علاقة الإنسان بالله بل لابد أن تقترن بحالة الشوق، حتى تكتمل وتتوازن، وتتناسق.

وهاتان الحالتان بارزتان في عبادة أولياء الله وعبادة الصالحين وعلاقتهم بالله، فقد يكون طابع الشوق واللهفة هو الغالب على عبادتهم وعلاقتهم بالله، وقد يكون طابع الأنس والسكون والاطمئنان هو الغالب على عبادتهم وذكرهم وعلاقتهم بالله، وقد يكون هذا وذاك، وهو أفضل الأحوال وأسلمها، وأقرب إلى حالة التوازن والتناسق في العلاقة بالله. عن حماد بن حبيب العطار الكوفي، قال:

خرجنا حجاجاً فرحلنا من زبالة ليل، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطعت القافلة فتهت في تلك الصحاري والبراري فانتهيت إلى واد قفر، فلما أن جنّ الليل أويت إلى شجرة عادية، فلما أن اختلط الظلام إذ أنا بشاب قد أقبل عليه أطمار بيض، تفوح منه رائحة المسك، فقلت في نفسي: هذا وليّ من أولياء الله متى ما أحس بحركتي خشيت نفاره، وإن أمنعه عن كثير مما يريد فعاله، فأخفيت نفسي ما استطعت، فدنا إلى الموضع فتهيأ للصلاة، ثم وثب قائماً وهو يقول:

يامن أحاز كل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً، أولج قلبي فرح الإقبال عليك، وألحقني بميدان المطيعين لك.

قال: ثم دخل في الصلاة...

فلما أن تقشع الظلام وثب قائماً وهو يقول:

يامن قصده الطالبون فأصابوه مرشداً وأمّه الخائفون فوجدوه متفضّلاً، ولجأ إليه العابدون فوجدوه نوالاً، متى راحة من نصب لغيرك بدنه، ومتى فرح من قصد سواك بنيته، إلهي قد تقشّع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً، ولا من خاص مناجتك مدراً، صل على محمد وآله، وافعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين.

قال فخفت أن يفوتني شخصه، وأن يخفي عليّ أثره فتعلقت به، فقلت له: بالذي أسقط عنك ملال التعب، ومنحك شدة شوق لذيذ الرغب... من أنت؟ فقال لي: أما إذ أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين[٤٦].

وقال الأصمعي:

كنت أطوف حول الكعبة ليلة، فإذا بشاب

ظريف الشمائل وعليه ذؤابتان، وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول:

نامت العيون، وغلت النجوم وأنت الملك الحي القيوم غلقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرّاسها، وبابك مفتوح للسائلين، جئتك لتنظر إليّ برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم أنشأ يقول:

يا من يجيب دُعَا المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت قاطبة
وأنت وحدك يا قيوم لم تنم
أدعوك رب دعاء قد أمرت به
فارحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرف
فمن يجود على العاصين بالنعم

قال: فاقتفيته فإذا هو زين العابدين عليه السلام[٤٧].

وقال طاووس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد، فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه، وقال:

«إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين، وجئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدي محمد صلى الله عليه وآله في عرصات القيامة».

ثم بكى وقال:

«وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك وأنا بك شاكّ، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوَّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى عليّ، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفّين جوزوا، وللمثقلين حطّوا، أمع المخفّين أجوز؟ أم مع المثقلين أحطّ؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحيي من ربي؟!».

ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى
فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زرية
وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال:

سبحانك تعصى كأنك لا ترى، وتحلم كأنك لم تُعصَ، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم.

ثم خرّ إلى الأرض ساجداً، فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال:

من الذي أشغلني عن ذكر ربي؟

فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع، ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء، وجدك رسول الله صلى

الله عليه وآله ؟! قال فالتفت إلي وقال:

ميهات ميهات، يا طاووس دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن، ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً أما سمعت قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) والله لا ينفعك غداً إلّا تقدمة تقدمها من عمل صالح﴾[٤٨].

ونصوص الأدعية والمناجاة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام غنية بهذه الصور الحية والمتحركة والمعبّرة عن *الأنس والشوق* وبشكل خاص المناجاة الخمس عشرة التي يرويها العلامة المجلسي في البحار عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام.

ونحن نجد في تراث أهل البيت عليهم السلام كنزاً غنياً من هذه الصور والمعاني، قلما نجده عند غيرهم. وها نحن نذكر بعض هذه الصور قبل أن نفارق هذا البحث:

«إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حِوَلاً. إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك وأخلصته لودّك ومحبتك، وشوّقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك، ومنحته النظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقلاك، وبوّأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهّلته لعبادتك، وهيّمت قلبه لإرادتك، وأحببته... وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحي بريّتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك. اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة لخدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال العارفين أسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إليّ مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الودّ والعطف إلي، ولا تصرف عني وجهك»[٤٩].

وهذه فقرات من الدعاء زاخرة بمفاهيم الحب والشوق والأنس، ولست أريد التعليق، فلن أستطيع أن أزيد الفقرات من الدعاء جمالاً على جمالها وبياناً على بيانها، ولست ممن يحسن التعليق على آيات الدعاء والحب والأدب.

وأول ما يلفت النظر في هذه الفقرات النداء الذي ينادي به الإمام ربه سبحانه وتعالى:

«يا منى قلوب المشتاقين، وغاية آمال المحبين...» «يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة».

ومطالب الإمام في هذا الدعاء ثلاثة، وهي أعظم ثلاثة يطلبها العبد من ربه.

فهو يطلب من الله أولاً أن يصطفيه لنفسه، ويخلص قلبه لحبه ويخل وجهه لوجهه الكريم، ويرغبه فيما عنده، ويفرغ فؤاده لحبه، ويلهمه ذكره، ويقطع عنه كل ما يقطعه عنه، ويصرف عنه كل ما يصرفه عنه.

وهذه البداية ضرورية للحركة التي يطلبها الإمام من الله تعالى، ولابد من أن يطلب العبد أن يرزقه الله تعالى هذا الرزق بمفاتيحه، فإن الله تعالى إذا رزق أحداً من عباده رزقاً رزقه من أبوابه ومفاتحه، وسبب له أسبابه.

والأبواب التي منها يدخل الإنسان، ثم منها ينطلق إلى قمة لقاء الله ومشاهدة وجهه الكريم هي:

تفريغ القلب من كل رين وهم وحب وتعلق بالدنيا، وهو ما يسميه العلماء بالتخلية، أي إخلاء القلب لله تعالى من كل هم وتعلق لغيره.

فيقول الإمام:

«واجعلنا ممن أخلصته لودّك ومحبتك»

«وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك»

«وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك»

وهذه هي *النقطة الأولى* في البداية، وهي نقطة سلبية.

والنقطة الثانية في البداية هي (التحلية) في مقابل (التخلية) كما يقول العلماء وهي نقطة إيجابية يلحظها الإمام في الطلبات التالية:

واجعلني ممن رضيته بقضائك، وحببوته برضاك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالح بريتك، واخترته لمناجاتك. واجعلنا ممن جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وافئدتهم منخلعة من رهبتك.

وهذه البداية (بنقطتيها) هي مفتاح الحركة إلى الله، وهي المنطلق التي منها ينطلق الإنسان إلى غاية لقاء الله.

والطلب الثاني مترتب على الطلب الأول، وهي المرحلة الوسطى في هذه الحركة الصاعدة إلى الله، ومن دونه لا يمكن أن يتحرك الإنسان إلى الله، ويصل إلى جواره وقربه ﴿*في مقعد صدق عند مليك مقتدر*﴾[٥٠].

والمركب الذي يحمل الإنسان إلى هذه الغاية التي يتمناها كل صدّيق ونبي ووليّ وشهيد، هو *الحب والأنس بالله والشوق إلى الله*، ومن دون الحب والشوق والأنس لا يمكن أن يرقى الإنسان هذا المرتقى الرفيع إلى الله.

والحب والشوق والأنس رزق من عند الله، من دون شك، يرزقه الله تعالى من يجتبي ويصطفي من عباده.

ويلحّ الإمام في هذا الطلب، ويتوسل إلى ذلك بمختلف الوسائل والتعابير، فهو ينادي الله تعالى بهذا النداء الرائع:

▣ الحبّ والشوق والأنس رزق من عند الله، من دون شك، يرزقه الله تعالى من يجتبي ويصطفي من عباده.

«يا منى قلوب المشتاقين ويا غاية آمال المحبين».

ثم يطلب منه الحب وحب من يحب، وحب كل عمل يوصله إلى قربه وجواره.

صورة أخرى من صور الشوق والأنس

في أدعية الإمام زين العابدين عليه‌السلام:

«إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيِّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك. قرِّب علينا البعيد، وسهِّل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون. الذين صفيت لهم المشارب، وبلّغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك، وروّيتهم من صافي شربك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصّلوا.

فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف... أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودّك قسماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً.

فقد انقطعت إليك همّتي وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، وصلك منى نفسي وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي وعندك دواء علّتي، وشفاء غلتي، وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، ووليّ عصمتي، ومغني فاقتي، ولا تقطعني عنك، ولا تبعدني منك، يا نعيمي وجنتي، ويا دنياي وآخرتي»(٥١).

وهذه القطعة الجليلة من جلائل المناجاة، ورائعة من روائع أدب الدعاء، وغرة من غرر كلمات أهل البيت عليهم السلام في الدعاء والتضرع والحب، صادرة عن قلب واله بحب

الله، مشتاق إلى لقاء الله، وهي تستحق الكثير من التأمل والوقوف، وكنت أتمنى أن أطيل الوقوف عندها، لولا أن ذلك يخرجنا عن حجم هذه الرسالة ومسؤوليتها.

إذن نقتصر على الإشارة السريعة إلى بعض الصور والأفكار للحب الإلهي التي تزخر بها هذه المناجاة.

في البدء يطلب الإمام زين العابدين عليه السلام من الله أن يأخذ بيده ويسلك به سبل الوصول إليه، وهو خلاصة ما في هذا الدعاء، وأجلّ ما في هذا الدعاء من المطالب.

ولا يطلب الإمام في هذا الدعاء من الله تعالى دنيا ولا آخرة، وإنه لطلب مشروع يحبه الله، ولكنه يطلب القرب، والوصول والجوار، في مقعد صدق عنده مع الصديقين والشهداء والأنبياء.

يقول عليه السلام: «*إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك*» ولا يقول الإمام (سبيل الوصول إليك) بصيغة المفرد، بل: «*سبل الوصول*» بصيغة الجمع، ذلك لأن (الصراط) إلى الله تعالى وإن كان واحداً لا يتعدد، ولم يذكر القرآن لله تعالى إلّا صراطاً واحداً، يقول تعالى:

«*اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين*»(٥٢).

«*والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم*»(٥٣).

«*ويهديهم إلى صراط مستقيم*»(٥٤).

«*واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم*»(٥٥).

أما (السبيل) فقد ورد بصيغة الجمع في الحق والباطل في القرآن كثيراً.

«*يهدي الله من اتبع رضوانه سبل السلام*»(٥٦).

«*ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم*»(٥٧).

«*فاسلكي سبل ربك ذللاً*»(٥٨).

«*وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا*»(٥٩).

«*والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين*»(٦٠).

فقد جعل الله تعالى للناس إليه سبلاً كثيرة يسلكونها إليه. وقد اشتهر على لسان العلماء: «أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»

وكل هذه الطرق والسبل تجري على صراط الله المستقيم، ولكن جعل الله تعالى لكل إنسان طريقاً يعرف به ربه، ويسلك به إليه. فمن الناس من يسلك إليه بالعلم والعقل، ومنهم من يسلك إليه سبيل القلب والفؤاد، ومن الناس من يعرف الله بالتجارة والتعامل مع الله وأنه من أفضل السبل أن يتعرف الإنسان على الله من خلال التعامل المباشر مع الله والأخذ والعطاء، قال تعالى: «*يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم*»(٦١).

وقال سبحانه: «*ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد*»(٦٢).

والإمام زين العابدين عليه السلام هنا يطلب من

الله تعالى أن يسلك به سبل الوصول إليه، لا سبيلاً واحداً، فكلما سلك الإنسان إلى الله تعالى مسالك وسبلاً أكثر كان وصوله إلى جوار الله وقربه أكثر وأقوى وأبلغ. ثم يسأل الله تعالى بعد ذلك أن يلحقه بأهل البدار من عباده الصالحين الذين يسارعون إلى الله ويطوون ليلهم ونهارهم على طاعة الله وعبادته، وقطعوا الطريق بعزم وصدق، ثم تساقطوا أثناء الطريق.

الإمام زين العابدين عليه السلام يسأل الله أن يقرّب عليه البعيد، ويسهّل عليه اليسير، في هذه الرحلة الشاقة، وأن يلحقه بالصالحين الذين سبقوه (وهو إمام الصالحين)، فإن رفقة الأولياء والصالحين على طريق ذات الشوكة، تشدّ على عزم الجميع وعلى قلوبهم، وتزيد من عزمهم على مواصلة الطريق.

فإن السير إلى الله صعب، فإذا كان يسير على هذا الطريق جمع من الصالحين، يتماسكون، ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر... خف عليهم السير على طريق ذات الشوكة.

يقول علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في طبيعة هذه الرحلة الشاقة والطويلة، وفي طلب التقريب والتخفيف والالتحاق بالصالحين على هذا الطريق:

«وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك، قرّب علينا البعيد، وسهّل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك بالليل والنهار يعبدون».

واردات القلوب ورواشحها

ويصف الإمام هؤلاء الصالحين الذين يسأل الله تعالى أن يلتحق بهم بهذا الوصف الجليل الذي يستحق الكثير من التفكير والتأمل.

«والذين صفّيت لهم المشارب، وبلّغتهم الرغائب... وملأتَ لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم من صافي شربك».

فما هو الشرب الصافي الطهور الذي يسقيهم ربهم في الدنيا؟ وأي إناء يحوي هذا الشرب؟

إن هذا الشرب الصافي هو شرب (الحب) و (اليقين) و (الإخلاص) و (المعرفة)... والإناء هو (القلب).

وقد رزق الله تعالى الإنسان أوعية كثيرة للمعرفة واليقين والحب، ولكن (القلب) هو أعظم هذه الأواني جميعاً وأوعاها.

فإذا صفى الله تعالى لعبده شرب قلبه، وسقاه شراباً صافياً طهوراً، كان عمله وكلامه وعطاؤه أيضاً صافياً نقياً مثل شربه.

فإن بين واردات القلب وصادراته تشابهاً ومسانخة. فإذا كانت واردات القلب نقية صافية، من نمير نقيّ عذب، كانت صادرات

◘ إن السير إلى الله صعب، فإذا كان يسير على هذا الطريق جمع من الصالحين، يتماسكون، ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر... خفّ عليهم السير على طريق ذات الشوكة.

القلب تشبهها، فيكون فعل العبد، وكلامه، ورأيه، وأخلاقه، وموقفه، وعطاؤه صافياً وعذباً. وإذا كانت واردات القلب قذرة أو مشوبة بالكدر مما يوحيه الشياطين إلى أوليائهم، كانت صادرات القلب لا محالة تشبهها من كذب ونفاق وشحّ وإعراض عن الله ورسوله.

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إن في القلب لمّتين: لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، ولمّة من العدو: إيعاد بالشر وتكذيب للحقّ. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الآخر فليتعوّذ بالله من الشيطان.

ثم قرأ: ﴿*الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً*﴾(٦٣)

ولمّة الملك هي الواردات الربانية إلى القلب، ولمّة العدو هي الواردات الشيطانية إلى القلب. أرأيت النحل إذا أخذ من رحيق الأزهار أعطى الناس عسلاً صافياً حلواً شهياً، فيه شفاء للناس، وإذا أخذ طعامه من موارد غير صافية وغير نقية كان عطاؤه كذلك بطبيعة الحال.

يقول الله تعالى عن أنبيائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام:

﴿***واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار***﴾(٦٤).

وإن هذا الوصف الجليل الذي يصف الله تعالى به عطاء هؤلاء الأنبياء الكبار، وهو القوة والبصيرة (الأيدي والأبصار) هو نتيجة هذا الشرب الخالص الذي آتاهم الله تعالى؛ ﴿*إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار*﴾.

ولو لا أن الله تعالى أخلصهم بهذه الخالصة من ذكرى الدار، لم تكن لهم قوة ولا بصيرة. إذن لكي يصفو عمل الإنسان لابد من أن يصفو شربه، والقلب يعطي ما يأخذ.

أصل الاختيار

وإذا وضّحنا دور واردات القلب وما يصدر عنه، والتشابه والتسانخ بين هذا وذاك، فلابد أن نقول: إن هذا الكلام لا ينفي بالضرورة أصل الاختيار الذي هو أساس لكثير من المفاهيم والأفكار القرآنية، وليس معنى ذلك أن القلب وعاء فارغ يتلقى ويعطي ما يُلقى إليه من خير وشر، بل القلب وعاء واعٍ، يعي ما يلقى إليه، ويميّز الحقّ عن الباطل والخير عن الشر.

وهذا أصل آخر أصيل من أصول التفكير الإسلامي، وعلى هذا الأصل (وعي القلب) وذاك (الاختيار) تتوقف مسائل وأصول وقضايا كثيرة في الإسلام.

وقد ورد كراراً ومراراً في النصوص الإسلامية تأكيد الدور الواعي للقلب في حياة الإنسان من قدرة على التشخيص ومن كفاءة عالية في تمييز الحقّ عن الباطل.

روي أن داود عليه السلام ناجى ربه فقال:

إلهي لكل ملك خزانة، فأين خزائنك؟

فقال جل جلاله: *لي أعظم من العرش وأوسع من الكرسي وأطيب من الجنة، وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة، وسماؤها الإيمان، وشمسها الشوق، وقمرها المحبة، ونجومها الخواطر، وسحابها العقل، ومطرها الرحمة، وشجرها الطاعة، وثمرها الحكمة ولها أربعة أركان: التوكل والتفكر، والأنس، والذكر. ولها أربعة أبواب: العلم والحكمة والصبر والرضا. ألا وهي القلب.*

والنص ـ كما هو بيّن ـ يتحدث في السؤال والجواب بلغة الرمز، وهي لغة معروفة في النصوص الإسلامية.

وروي أن الله تعالى قال لموسى:

يا موسى جرّد قلبك لحبّي، فإني جعلت قلبك ميدان حبي، وبسطت في قلبك أرضاً من معرفتي، وبنيت في قلبك شمساً من شوقي، وأمضيت في قلبك قمراً من محبّتي، وجعلت في قلبك عيناً من التفكر، وأدرت في قلبك ريحاً من توفيقي، وأمطرت في قلبك مطراً من تفضّلي وزرعت في قلبك زرعاً من صدقي، وأنبتّ في قلبك أشجاراً من طاعتي... ووضعت في قلبك جبالاً من يقيني.

وهذا النص أيضاً يتحدث بلغة الرمز.

وكلا النصين يشرحان الدور الواعي للقلب في تمييز الحق عن الباطل والهدى من الضلال.

عودة إلى المناجاة

ثم ينادي الإمام زين العابدين عليه السلام ربّه تعالى بهذا النداء الرقيق:

«فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف».

وهذا النداء يتضمن نقطتين:

إن الله تعالى يقبل على من يقبل عليه ويعيذهم بفضله ويعطف على الغافلين عنه، ويذهب عنهم الغفلة بالجذبات الربانية.

وبعد هذه البداية يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى، أن يجعله من أوفر أهل الصلاح حظاً من رحمته، وأرفعهم منزلةً، وأجزلهم قسماً، يقول عليه السلام:

«أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودّك قسماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً»

وهذه الفقرة من الدعاء تثير هذا السؤال:

لقد كان الإمام يتمنى أن يلحقه الله تعالى بهم من قبل، والآن يتمنى أن يجعله الله من أوفرهم حظاً وأعلاهم منزلة عنده. فكيف نضم هذا السؤال إلى جنب ذلك السؤال؟! وما الذي حدث في جوّ الدعاء، وفي الجوّ النفسي للإمام حين الدعاء بحيث أدى إلى هذه القفزة في الطلب والسؤال من طلب اللحوق بالصالحين إلى طلب التقدم عليهم وإمامتهم؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يتطلب شرح سرّ من أسرار الدعاء.

فقد علّمنا الله تعالى أن لا نقتر في السؤال، ولا نبخل في الدعاء إذا كان المولى كريماً. وما أقبح البخل في السؤال عندما يكون المسؤول كريماً، لا حدّ لخزائن رحمته، ولا نفاد لها، ولا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً.

وقد علّمنا الله تعالى فيما علّمنا من آداب (عباد الرحمن) وأخلاقهم أن نطلب من الله تعالى أن يجعلنا للمتقين إماماً. ﴿***واجعلنا للمتقين إماماً***﴾(٦٥).

وفي الدعاء الوارد عن المعصومين عليهم السلام نقرأ كثيراً هذه الفقرة الطموحة: «***ولا تؤثر عليّ أحداً***».

الهوامش

(١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٩٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٢٢٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٢٦.
(٤) أصول الكافي، ج ٣ ص ١٣١.
(٥) أصول الكافي، ج ٣ ص ١٣١.
(٦) مصباح الشريعة، ج ٢، ص ٣.
(٧) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٨٠.
(٨) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٤٦٧.
(٩) بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٢٢٦.
(١٠) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٧٥.
(١١) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٥.
(١٢) بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٣٧.
(١٣) نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٨٥.
(١٤) بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٢٦.
(١٥) مناجات أهل البيت، ج ٩٦، ص ٩٧.
(١٦) دعاء الإمام زين العابدين في أسحار شهر رمضان، رواية أبي حمزة الثمالي،

بحارالأنوار، ج٩٨، ص ٨٥.
(١٧) مفاتيح الجنان المناجاة الخمسة عشر للإمام زين العابدين عليه السلام مناجاة المحبين ص ٢٢٩.
(١٨) بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٢٢٦.
(١٩) المناجاة الثالثة عشر من المناجاة الخمسة عشر، رواية العلامة المجلسي في البحار.
(٢٠) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٢١) مناجاة أهل البيت.
(٢٢) مناجاة أهل البيت، ص ٨٨.
(٢٣) مناجاة الإمام علي بن الحسين عليه السلام.
(٢٤) مفاتيح الجنان زيارة أمين الله.
(٢٥) بحار الأنوار، ج ٩٤، ص ١٥١.
(٢٦) مفاتيح الجنان، دعاء كميل بن زياد.
(٢٧) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي:
(٢٨) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.
(٢٩) نحن نستعير هنا كلمات الإمام علي عليه السلام نفسه، ولو لا أن يقول ذلك لم نجرؤ أن نتحدث عن العلاقة بينه وبين الله بهذه الطريقة.
(٣٠) المناجاة الأولى من المناجاة الخمسة عشر، برواية العلامة المجلسي في البحار.
(٣١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٣٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٣٣) مفاتيح الجنان، دعاء كميل بن زياد.
(٣٤) مناجاة أهل البيت ٦٨: ٩٦.
(٣٥) المناجاة الثالثة من المناجاة الخمس عشرة برواية العلامة المجلسي في البحار.
(٣٦) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٣٧) سورة الحديد، الآية ٤.
(٣٨) سورة ق، الآية ١٦.
(٣٩) سورة البقرة، الآية ١٨٦.
(٤٠) دعاء الافتتاح.
(٤١) المناجاة الحادية عشر من المناجاة الخمس عشرة.
(٤٢) لقاء الله للفقيه العارف الشيخ ميرزا جواد ملكي، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ طبعة سنة ١٣٦٠ هش.
(٤٣) سورة الحديد، الآية ٤.
(٤٤) سورة الرعد، الآية ٢٨.
(٤٥) مفاتيح الجنان، دعاء الإفتتاح.
(٤٦) بحار الأنوار ج ٤٦، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٤٧) المصدر نفسه.
(٤٨) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٨١ ـ ٨٢
(٤٩) المناجاة التاسعة من المناجاة الخامسة عشر التي يرويها العلامة المجلسي عن الإمام زين العابدين عليه السلام.
(٥٠) سورة القمر، الآية ٥٥.
(٥١) مناجاة المحبين وهي المناجاة الثامنة من المناجاة الخمسة عشرة التي يرويها العلامة المجلسي في البحار عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام.
(٥٢) سورة الفاتحة، الآية ٧.
(٥٣) سورة البقرة، الآية ٢١٣.
(٥٤) سورة المائدة، الآية ١٦.
(٥٥) سورة الأنعام، الآية ٨٧.
(٥٦) سورة المائدة، الآية ١٦.
(٥٧) سورة الأنعام، الآية ١٣.
(٥٨) سورة النحل، الآية ٦٩.
(٥٩) سورة إبراهيم، الآية ١٢.
(٦٠) سورة العنكبوت، الآية ٩٦.
(٦١) سورة الصف، الآية ١٠.
(٦٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.
(٦٣) تفسير الميزان، ج ٢، ص ٤٠٤.
(٦٤) سورة ص، الآية ٤٧.
(٦٥) سورة الفرقان، الآية ٧٤.